الإسلام والعروبة

مجدى أحمد حسين

عنوان المؤلف: ٣٦ شارع الروضة - المنيل- القاهرة
تليفون وفاكس: ٣٦٤٤٠٥٥

بريد إلكترونى:

magdyhussein@gawab.com

موقع جريدة (الشعب) على الإنترنت:

www.alshaab-eg.com

موقع حزب (العمل) على الإنترنت:

www.el3amal.net

الإشراف الفنى

طارق الكركيت

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

بعد ١٣ عاما من صدور هذه الورقة حول قضية العلاقة بين العروبة والإسلام، نعيد اصدارها فى طبعة ثانية مع إضافة مقال آخر حول ذات الموضوع صدر بعد قرابة عام.

ولا شك أن حدة الحوار حول هذه القضية الخلافية عام ٢٠٠٤ أصبحت أقل بكثير من عامى ١٩٩١ و١٩٩٢، ولعل هذا من علامات نضوج الحركات السياسية الإسلامية والقومية.

وقد كتب هذان المقالان تحت لهيب معارك العدوان على العراق عام ١٩٩١، وقد أثبتت الأيام أن العدو الصهيونى الأمريكى يستهدف الجميع، ويرفض أى

نهضة للأمة تحت شعارات قومية أو إسلامية. وفى المقابل شهد الواقع السياسى العربى المزيد من التقارب بين التيارين القومى والإسلامى فى معترك الجهاد ضد الغزاة، وأصبحت العلاقات أكثر نضجا بين التيارين فى العديد من الساحات وعلى رأسها فلسطين ولبنان والأردن ومصر والعراق. وتم تأسيس عدد من المنتديات العربية الجامعة للتيارين وعلى رأسها المؤتمر القومى الإسلامى، ومؤتمر الأحزاب العربية.

والأمر الذى لا جدال فيه أن شراسة الأعداء وحملتهم العدوانية الشاملة التى عادت إلى زمن الاحتلال التقليدى ساعدت على التقريب والتوحيد والتنسيق بين التيارين التاريخيين، وهو أمر مطلوب وضرورى حتى وإن زاد الوزن النسبى للتيار الإسلامى بشكل مطرد، فوحدة الأمة المقاومة للعدوان هى الموقف الاستراتيجى الصحيح.

وإن كنا نعتبر أن تراجع حدة الخلاف حول قضية العلاقة بين (العروبة والإسلام) لصالح الرؤية التى دعونا إليها من علامات نضوج حركاتنا السياسية العربية، إلا ان التأصيل النظرى للقضية يظل مطلوبا فى إطارتحديد مرجعيات الأمة فى تصديها لواحدة من أكبر الغزوات الاستعمارية، فى ظل انهيار النظام الرسمى العربى، لذا كانت هذه الطبعة الثانية المزيدة. والله من وراء القصد.

المؤلف

٢٧ / ٣ / ٢٠٠٤

الإسلام والعروبة.. ومشروعنا الحضارى..

إن التحديات الصعبة التى تواجه أمتنا العربية لم تجعل هناك سبيلا للنجاة إلا بالجهاد تحت لواء مشروع النهضة الإسلامية.. كبديل حضارى متكامل للعبودية الراهنة التى نرسف فى أغلالها.. العبودية للمشروع الأمريكى الغربى.. الذى لا يطرح علينا سوى التبعية والذلة والمسكنة محتكرا لنفسه (فى دول المركز) كل أسباب القوة والتقدم المادى.

إن روح الحقد الدفين التى أبداها الشيطان الأكبر الأمريكى تجاه أمتنا أوضحت لكافة القوى المخلصة والوطنية أن العدو يستهدف إبادة كل مقومات الأمة العربية الإسلامية وكل مظاهر قوتها المادية والروحية، وأنه لا يقبل التعاون إلا مع العملاء والراكعين،

والمسبحين بحمده، والرافلين فى أثواب نعمته، والمستمتعين بفكره ونموذجه الحضارى.. من موقع التبعية والدونية والقبول بموقع العبيد فيما يسمى (النظام العالمى الجديد).

إن الرد الملائم والمكافىء لهذه الحملة الهمجية لن يتحقق إلا بعودة حازمة للذات.. أى لهويتنا الحضارية. إن الإجابة القاطعة والواضحة على سؤال بسيط: من نحن؟! هى بداية التصدى الحقيقى لكل هذا التلاعب بمقدرات أمتنا بل والتدخل فى كل صغيرة وكبيرة من شئون أمتنا.

لقد أضاعت أمتنا الكثير من الجهد والتضحيات والعرق والدماء فى الماضى وحتى العدوان الأمريكى الأخير على العراق والخليج، بسبب انقسامات حادة حول مفهوم هوية الأمة.. وكان الصراع المفترض بين

الإسلام والعروبة أحد مظاهر هذه الانقسامات التى بددنا فيها كثيرا من الوقت والمال والأنفس.

والمشروع الفكرى الذى يطرحه حزب العمل - كامتداد وتطوير لأطروحات مصر الفتاة - رفض دائما هذا الانقسام، ودافع بدأب عن الترابط العضوى بين الدوائر المصرية - العربية - الإسلامية من حيث هى دوائر متكاملة مترابطة غير متعادية.. وذلك تحت مظلة الإسلام وحضارته العظيمة.

فنحن نفرق من ناحية بين هذه الدوائر من حيث هى حقائق تاريخية وجغرافية فتصبح دوائر متداخلة ومتراتبة تحتوى الدائرة الأوسع الدائرة الأضيق.. ومن ناحية أخرى - وعلى المستوى العقدى والفكرى - فإن العقيدة الإسلامية هى المحرك الرئيسى لمشروع نهضتنا وهى التى تضع له الأسس والملامح والخطوط التى يمكن أن نرتفع

بالبنيان الحضارى وفقا لها، باعتبارها الأساس المكين أى أن الإسلام هو القوة القائدة على صعيد هذه الدوائر الثلاث، وهو الذى يحقق تكاملها وترابطها ولحمتها.. إن هناك تمييزا بين الإسلام كعقيدة.. والإسلام كعالم إسلامى يمتد حيث يوجد المسلمون وهو واقع جغرافى وسكانى بالغ التعقيد والتنوع.

ونعتقد أن نصرة الإسلام لن تتحقق إلا على الصعيد القطرى أولا، ثم الصعيد القومى، ثم الصعيد الجغرافى للعالم الإسلامى.. فإذا كانت الدعوة الإسلامية فى نشأتها قامت وفق هذا القانون.. فكيف نتصور بعد أن تمزق العالم الإسلامى إلى عشرات الدول والدويلات التى تحكمها فى الأغلب حكومات تابعة للقوى العالمية المعادية للإسلام.. كيف يمكن أن نتصور التحقيق العملى للوحدة الإسلامية فى ساعة صفر مفترضة. فلا شك أن الوحدة الإسلامية ستتم كما جرت عبر العصور

بصورة تراتبية تصاعدية: قطرية ـ قومية ـ أممية.. وعبر تكتلات إقليمية تتسع بصورة استقطابية لتلم شعث الأطراف الممزقة من حولها شرقا وغربا.. شمالا وجنوبا.

***

والسؤال الذى يطرح نفسه من الناحية الإسلامية. ما هو وجه الاهتمام بالبعد العروبى القومى.. وكيف يمكن أن نضع دين الله على صعيد واحد مع أفكار ابتدعها البشر حول القوميات؟! الحقيقة نحن أمام مستويين لابد أن نفرق بينهما:

١ ـ العروبة كرابطة قومية.. والإسلام كرابطة دينية أعلى.

٢ ـ مشروع المستقبل للنهضة العربية الإسلامية.

أولا: رابطة الإسلام.. ورابطة العروبة

بالنسبة للمستوى الأول فإن الاعتراف بالرابطة القومية ليس مما يتعارض مع الإسلام، وليس من شأنه أن يقلل أو ينتقص من عالمية الدين الإسلامى باعتباره دين رب العالمين للعالمين.

ذلك أن الانتساب للأهل أمر مشروع فى الدين ويوصى به إلا أن يكون عشائريا، والاتصال بالوطن والجيرة أمر مشروع يوصى به الدين ويرتب عليه حقوقا وواجبات إلا أن تكون قطرية ضيقة، والانتساب للقوم والأهل أمر مشروع فى الدين يرتب عليه أولويات فى الواجبات والحقوق إلا أن يكون عصبيا.. والانتساب والولاء للأمة أمر معروف فى الدين إلا أن يكون هيكلا فارغا، وإنما هى مواثيق وترتيبات وطبقات وكيانات من الولاء تتركز كلها فى أمة الإسلام الواحدة وترتب الشريعة علاقاتها حتى لا تتناقض فلا ينبغى أن ننظر إلى

هذه الولاءات والانتماءات نظرة تناقض، فهى ولاءات تتراتب وتنتظم فتصبح ولاءا واحدا لا ينسخ الولاء الأعلى الولاء الأدنى، ولا ينقطع الولاء الأدنى دون الولاء الأعلى (١).

وتأكيدا لهذا المعنى فإنه كوننا مسلمين يحدد موقعنا العقدى وهويتنا الحضارية ولكنه لا يلغى موقعنا الجغرافى ولا موقعنا التاريخى... موقعنا الجغرافى: إننا عرب، نعيش فى وطن تجمع أهله لغة واحدة وتاريخ واحد، ولهم آمال وآلام مشتركة، إننا مصريون، نعيش فى بلد واحد له تاريخ، وبين أهله صلات توجب حقوقا والتزامات تقتضيها المواطنة والجوار، ولنا مشكلات تخصنا ويجب أن نتعاون على حلها. ولا تنافى بين الانتماء إلى الإسلام، والإنتماء إلى شعب خاص أو وطن خاص لأنه لا تنافى بين العموم والخصوص (٢).

أى أننا (حين نعمل لمصر نعمل للعروبة والشرق والإسلام، وأن العمل من أجل خير مصر هو الحلقة الأولى فى سلسلة النهضة المنشودة وأنها جزء من الوطن العربى العام) (٣).

وفيما يتعلق بواقع انقسام البشرية إلى أمم وقوميات فإن الآيات القرآنية صريحة فى أن ذلك من سنة الله فى خلقه. بل ومن آيات الله..

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾..صدق الله العظيم..

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ..﴾

أى أن الشعوب والقبائل (أو القوميات) حقائق إلهية مقررة.. وسنن كونية، ولا تبديل لسنة الله.. ولا تبديل لخلق الله..

ويمكن أن نقول إن هذه الآيات من الإعجاز القرآنى الشامخ على مر القرون، وأن النظريات التى ظهرت مؤخرا فى القرن التاسع عشر ودعت إلى أممية فارغة، لا تعترف بالأوطان والقوميات قد انهارت بعد سبعين عاما من التطبيق لتبقى الحقيقة القرآنية هى الحق والحقيقة.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾.. صدق الله العظيم..

إن الإسلام يعترف ويقر بالتعدد القومى ولكنه يرفض الرابطة العنصرية والاستعلاء العنصرى فالعروبة فى الإسلام ليست رابطة عنصرية، بل هى رابطة لسان (لغة) جاء فى الحديث الشريف: (ليست العربية بأحدكم من أب ولا أم وإنما هى اللسان.. فمن تكلم بالعربية فهو عربى)[٤].

وجاء فى القرآن الكريم:

﴿وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾.. النحل ١٠٣..

﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.. يوسف ٢

﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾.. الرعد ٣٧..

ولكننا نعلم أن اللسان (اللغة) هو وعاء ثقافى وبالتالى فإن تنوع اللغات يعنى تنوع الثقافات (بمعنى الخبرات البشرية) وهذا التنوع هو الذى يضع أساسا للتعاون بين الشعوب، وتبادل المنافع الروحية والمادية.

(لتعارفوا):

ولو عدنا من جديد إلى الآية الحاكمة فى هذا الصدد التى تقدم لنا المعادلة الشرعية والمتوازنة والدقيقة ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ فما معنى لتعارفوا؟!

(شاءت إرادة الله وحكمته أن يقيم كل ما فى الكون وبخاصة الحياة على التنوع والتشكل وجعل من هذا التنوع السبيل إلى الارتباط بحيث يكمل كل منهما

الآخر فكذلك يجب أن نفهم التنوع والاختلاف بين الجماعات البشرية فقد أراده الله سبحانه وتعالى لا ليكون سبيلا إلى التصادم والتنافر وإنما للتعاون والتآلف)(٥).

وبالطبع فإن كل هذا على قاعدة ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ وهذا هو الطرف الثانى للمعادلة، فالتنوع يجب ألا يقوم على أساس التفاضل العنصرى بل يكون التفاضل على أساس التقوى والاقتراب من الله. فالطرف الآخر للمعادلة (التفاضل على أساس التقوى) لا يلغى حكمة التنوع وانقسام البشر إلى جماعات (شعوب ـ قبائل) وهذا الانقسام لابد أن يخلق اختلافا فى الثقافات والخبرات ناجما عن اختلاف الظروف والمشكلات التى تواجه الجماعات المختلفة.. والتى تحتاج لمعالجات فرعية خاصة حتى وإن اندرجت كلها فى معسكر المسلمين، لأن المسلمين سيظلون منقسمين

إلى قبائل وشعوب فى إطار الناموس العام، وهذا التنوع بالأحرى هو الذى يخلق فروقا فى الفروع. وإن كان لا يخلق فروقا فى الأصول.. وذلك فى إطار أمة الإسلام. وهذا التقرير والتحديد بالغ الأهمية من وجهة نظر الشريعة الإسلامية لارتباطه بالفقه الإسلامى فقد قرر علماؤنا أن الفتوى تتغير بتغير الزمان والمكان والعرف والحال، وأن الشريعة إنما شرعت لمصالح العباد فى المعاش والمعاد.

والعلاقة بين الإسلام والقومية العربية علاقة خاصة وفريدة فى تاريخ الجماعات والأمم، فالعروبة لم تقم لها قائمة، ولا دولة، ولا حضارة، إلا فى ظل الإسلام. العروبة كآصرة لم تتوطد، ولم تتدعم إلا فى إطار الإسلام والدعوة الإسلامية. فقبل الفتوح الإسلامية، كان العرب محصورين فى جزيرة العرب، وكانت هجراتهم إلى المناطق المجاورة محدودة أو غير مؤثرة،

فلم توثر كثيرا فى سكان مناطق الشرق ومصر بل لقد امتصتهم حضارات تلك البلدان واستوعبتهم وعلمتهم لغاتها الخاصة فيما عدا جيوب صغيرة فى جنوب سوريا وجنوب العراق(٦) وحتى فى جزيرة العرب فقد تفرق العرب (فى الجاهلية) إلى جماعات عديدة تتشابه فى العادات والطباع ولكنها قبائل متباعدة مستقلة لا تعرف الهدوء والاستقرار وتشتبك فى حروب مستمرة حتى مع القبائل التى ترتبط بها بروابط الدم والمصلحة لأسباب تافهة، وكانت كل محاولة لايجاد نوع من الاتحاد مصيرها الإخفاق (٧).

وأدى هذا التناحر إلى ضعف الروح القومية، إذ أصبح العربى البدوى ينظر إلى قبيلته على أنها وطنه، وإلى القبائل الأخرى على أنها أعداء. ولم تنجح اللغة العربية قبل الإسلام فى توحيد العرب، بل على العكس فإن الظروف الجغرافية القاسية التى أدت إلى صعوبة

الاتصـال والامتزاج، أفـضت إلى إختـلاف اللهـجات، حتى أصبحت بعض هذه اللهجـات وكأنها لغات بعيدة عن أصلها العربى، وكانت لغـة قريش ـ أو لهجة قريش على الأصح ـ أكثر اللغات انتشـارا، وهى التى نزل بها القرآن الكريم. وهنا تأتى معجزة الإسلام: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَـمِـيـعًـا مَّـا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَـيْـنَـهُـمْ﴾.. الأنفـال ٦٣.. وهكـذا قـامت أول وحـدة للعـرب.. وأول دولة للعرب.. بعـد الإسلام، فـقد تمت الوحدة الدينـية أولا ومهـدت هذه الرابطة الدينية لقـيام وحدة سـياسية واجـتماعيـة تجمع شمل العـرب وقامت الدولة العـربية الإسـلامية على أسـاس الوحدة الديـنية، ويقول لوبون فى (حـضارة العرب) (كـانت الدولة التى أسسهـا العرب هى الدولة العظمى الوحيـدة التى قامت باسم الدين والتى اشـتقت منه جمـيع نظمهـا السياسـية والاجتماعية).

ومع الفتح الإسلامى تمددت العروبة واللغة العربية فى شمال أفريقيا ثم إلى جنوب أوروبا من ناحية وإلى وسط آسيا من ناحية أخرى.. وقد كان مقياس التعريب هو الدخول فى الإسلام مع تعلم اللغة العربية.. وإذا سار التاريخ بصورة مختلفة ولم يهزم المسلمون فى الأندلس وفرنسا وصقلية، فلربما أصبحت هذه البقاع فى إطار الأمة العربية، ولدخلت صقلية وإسبانيا جامعة الدول العربية كما دخلت موريتانيا والصومال!![8] .

حقا إن الانصهار بالدم من خلال الهجرات العربية كان أحد روافد التكوين العربى، ولكن مرة أخرى فإن الهجرات المكثفة ارتبطت بالفتح الإسلامى، كما أن هذه الهجرات لم تستوطن مناطق خالية ولكنها امتزجت بمناطق مأهولة بالسكان، بل ومراكز حضارية قديمة (مصر - تونس - المغرب). وبهذا المعنى يمكن أن نقول إن الإسلام هو خالق خارطة الوطن العربى بصورته

الحاليـة.. وعلى أطراف الخريطة الحـالية للوطن الـعربى امتـد الإسلام، ولكـن عمليـات التـعـريب اللغـوى لم تسـايره، بالإضـافـة إلى حـدوث ردة فـى بعض المواقع الإسلامـية فى آسيا (شـرق العراق) فى عملية التـعريب فى إطار التعصبات القومية، والتمسك باللغات القومية، وإن كنا نعـود فنقول هذه سنة الله فى خلـقه ﴿اخْتِـلافُ أَلْسِنَتِكُمْ﴾.

وكل من يتحدث عن تاريخ العرب والقومية العربية، فهـو لن يتحـدث حقـيقة إلا عن تاريـخ الإسلام، وهى رابطة فريـدة وخاصة بين القـوميـة العربيـة والإسلام لا تتوافر بين القومية والدين فى أى أمة أخرى.. يتوج هذه العـلاقة اللـغة العـربيـة.. لغة القـرآن الكريم والرسـول الكريم خاتم المرسلين.

***

ولقد تمتع جمال الدين الأفغانى بصفاء شديد فى تناول هذا الموضوع، وهو الذى جاهد جهادا كبيرا للحفاظ على الجامعة الإسلامية، وذلك حين حدد أن للإنسان ثلاث دوائر يتحرك فيها، هى دائرة الجماعة التى ينتسب إليها، ودائرة الملة التى ينتمى إليها دينيا، ودائرة النوع الإنسانى الذى هو أحد أفراده، وأولى اهتماما بقيمة اللسان العربى فى إقامة الحضارة الإسلامية، وأن وحدة اللسان هى أهم الخصائص القومية(٩) .

ويخشى البعض من أن التأكيد على البعد القومى قد يؤثر على نقاء العقيدة الإسلامية التى هى فوق القوميات، ولا نرى داعيا لهذه الخشية لأن أحكام وأصول ديننا الحنيف وأركان العقيدة الإسلامية واضحة كفلق الصبح، لا يتعارض الالتزام بها أو تطبيقها مع حقيقة تنوع البشر إلى جماعات، بل إن الدولة الإسلامية (دولة الخلافة) كانت بطبيعتها تتمتع بدرجة

عـالية من اللامـركزية، ومـراعاة الأحـوال الخصـوصيـة للأمم والشعوب التى تـدخل فى الإسلام، وقد أدى هذا إلى تنوع الإجتهادات والأحكام الفـقهية فى الفروع من مكان لآخـر تحت المظلة الواحـدة لحكـم الشـريعـة الإسـلاميـة، والفروع تشـمل مسـاحة واسـعة جـدا من التطبيـقات أو الاجتهادات فـى مجالات الحياة البـشرية المتنوعـة والمتـجددة بصـورة لا نهـائية، ولم يـكن الفقـه الإسلامى العظيم، إلا جهدا متـواصلا لتطبيق النصوص الشرعية والقياس عليها، على الوقائع الجديدة والمتجددة والمختلفة من بلد لآخر.

***

الأمر الذى لا جـدال فيه أن دعـاة الوحدة العـربية لم يطرحوا دائما القـضية بهذه الصورة الإسلامـية، فخلال العهـد الناصرى ـ علـى سبيل المـثال ـ لم يطرح الميـثاق

العلاقة بين العروبة والإسلام بالصورة التى تعرضنا لها، ولكنه طرحها باعتبارها مجرد رابطة من الروابط (إذا كان شعبنا يؤمن بوحدة عربية فهو يؤمن بجامعة أفريقية، ويؤمن بتضامن أفرو آسيوى، ويؤمن بتجمع من أجل السلام يضم جهود الذين ترتبط مصالحهم به، ويؤمن برباط روحى وثيق يشده إلى العالم الإسلامى ويؤمن بانتمائه إلى الأمم المتحدة وبولائه لميثاقها).

وهكذا لا نجد علاقة خاصة بين العروبة والإسلام، وإنما مجرد دائرة جغرافية روحية قابعة بين التضامن الأفروآسيوى وبين الولاء للأمم المتحدة!!

وفى خطب عبدالناصر مثلا نجد دائما الإشارة إلى «التضامن القلبى والأخوى مع الأمم الإسلامية» وإلى أن الإسلام «ليس عائقا للتطور بل دافع له» (١٠).

وقد كانت هذه الإشارات أشبه بالجمل الاعتراضية

وسط فيض الحديث عن القومية العربية أى أن إعلاء الرابطة القومية على الرابطة الإسلامية كان هو الأمر الواقع فى حركة وهموم الحركة القومية فى عهد عبدالناصر، وقد انعكست هذه النظرة فيما بعد لدى بعض الشباب الناصرى أثناء الحرب العراقية الإيرانية حين اعتبر أن تحرير شط العرب مهمة قومية مقدسة (بغض النظر عن ملابسات ضرب الثورة الإسلامية فى إيران) بل ويمكن أن تجد حتى الآن بعض المطبوعات الناصرية مزينة بخريطة تضم مناطق شط العرب المتنازع عليها بين العراق وإيران إلى الخريطة العربية كما لو أنها قضية مقدسة أو مبدئية فى حد ذاتها بحيث توضع على قدم المساواة مع مشكلة سبتة ومليلة المغربيتين بلا تفرقة بين إسبانيا الأوروبية وإيران الإسلامية.

باختصار فإن الوحدة السياسية الإسلامية لم تطرح خلال العهد الناصرى، ولم تكن هناك إشارات صريحة

إلى أن الدعوة للوحدة العربية فى إطار مشروع أشمل للوحدة الإسلامية كأفق استراتيجى. ولعل الواقع السياسى كان له إسهام فى ذلك، فالدول الإسلامية المحيطة بالعالم العربى كانت تحكمها أنظمة موالية للغرب، الأمر الذى لم يطرح سياسيا هذا الأفق، ولعله من الإنصاف أن نشير إلى العلاقات التى أقامها عبدالناصر مع الخمينى ومع المعارضة الإسلامية فى إيران ضد نظام الشاه. ولكن يبقى الاتجاه العام كما ذكرنا لا يضع فى اعتباره بُعد الوحدة الإسلامية.

حقا إن تأسيس الوحدة العربية خطوة كبرى على طريق التوحيد الإسلامى من الناحية العملية، إلا أن ضمان تحقيق ذلك يستدعى رؤية فكرية غير التى طرحها الميثاق وبعض الأدبيات السياسية خلال عهد عبدالناصر.

إن الوحـدة العـربيـة هى نواة الوحـدة الإسلاميـة.. كـاتجـاه عـام، ولكـنه لا ينفى إمكانيـة اتحـاد دولتـين إسلاميتـين غير عربيتين، قبل أن تـتم الوحدة العربية، أو أن تتم وحدة بين دولة عربية ودولة إسلامية مجاورة قبل شمـول تحقـيق الوحدة العـربية. العـلاقة بين الوحـدتين العربيـة والإسلاميـة ليست علاقة سُلمـية آلية.. غـاية ما هنالك أن وحـدة اللغـة (العـربيـة) والترابط الجـغـرافى تشكل أرضية مـواتية للوحدة العربية، بالإضافـة لتواجد كل البقاع المقـدسة فى قلبها.. يجعل الوحدة الإسـلامية منقوصة بدون قلبهـا العربى.. وأضيف إلى كل ذلك أن كـوننا عـربا ـ فى مـصـر ـ يجـعل مـسـئـوليـتنا الأولى والمباشرة هى العمل على توحيد العرب (ابدأ بنفسك ثم بمن تعول) (حديث شريف).

ويجب ألا نمـر مـرور الكـرام على عنصـرى اللغـة والجغرافـية، فاللغـة الواحدة بالإضافة لما تمثله من ثقـافة

مشتركة ذات طابع تاريخى، واحتوائها لمختلف أنواع الآداب والفنون مما ييسر عملية التفاهم والمعرفة المتبادلة، فإن اللغة أداة الاتصال الرئيسية بين الشعوب، وهى عنصر يساعد بلا شك فى عملية التوحيد والامتزاج. وسيكون أيضا من قبيل الغفلة السياسية إسقاط البعد الجغرافى والامتداد الأرضى باعتباره أحد قوانين نجاح عملية الوحدة عبر التاريخ.. فلا شك أن أحد أسباب سهولة فصم عرى الوحدة الباكستانية وظهور دولة بنجلاديش هو البعد الجغرافى بين باكستان الغربية وباكستان الشرقية الذى وصل مئات الكيلو مترات.. كذلك الأمر فيما يتعلق بالوحدة المصرية السورية (١٩٥٨ ـ ١٩٦١) وفى المقابل يمكن تصور الجغرافية المواتية للوحدة المصرية ـ السودانية ـ الليبية ـ والوحدة المغربية.. إلخ.. ذلك أن تطور وسائل المواصلات الحديثة لم يلغ أهمية التواصل الجغرافى.

كما يمكن تصور أن الوحدة بين دولة إسلامية عربية ودول إسلامية غير عربية سيكون مواتيا أكثر فى حالة الجوار الجغرافى كوحدة مفترضة بين العراق وإيران، أو بين سوريا وتركيا.. إلخ.. وإذا كنا من دعاة الوحدة الإسلامية حقا فإننا نرحب بحدوث هذا الاحتمال إذا سمحت به الظروف السياسية بحيث يسبق الوحدة بين دولتين عربيتين أو أكثر.. المهم أن ندرك أن الوحدة الإسلامية المنشودة عملية متدرجة معقدة لن تنشأ فجأة، ولكن بتراكم مجموعات من الوحدات الإقليمية التى تدرك أهمية عودة دولة الخلافة بحيث تتقارب وتندمج معا بصورة متدرجة، ولا يحتاج المرء لكثير فطنة ليرى الكتلة العربية بين هذه التجمعات، والشروط الجغرافية الميسرة لتحقيق وحدتها (الوطن العربى). وبهذا المفهوم فإن الوحدة العربية هدف وشعار إسلامى، لأن إزالة الحدود بين الدول الإسلامية وتوحيدها هدف إسلامى

فى حد ذاته، مهما كانت نوعية الحكام الذين تتم على ايديهم هذه الوحدة. ويبقى الهدف الأسمى أن يتم تحقيق الوحدة فى ظل الشريعة الإسلامية والحكم الإسلامى، وهو الأمر الذى سيحدث فى المستقبل - إن شاء الله - حيث تتضافر جهود الوحدة مع إقامة الحكم الإسلامى فى مرحلة واحدة.. وإن كانت تجربة الوحدة اليمنية التى نرجو من الله أن يحفظها من كل سوء، قدمت مثالا على إمكانية التوحيد قبل إقامة الحكم الإسلامى.. وهى كما ذكرت (أى الوحدة) هدف فى حد ذاته، وخطوة أساسية لا شك فى أنها تهيىء الشروط لعودة دولة الخلافة الإسلامية المنشودة.

ولكن يجب أن نتذكر دائما أن العاطفة القومية لا تقوى وحدها على مغالبة أهواء الفرقة الوطنية والسياسية ومكائد التفريق الامبريالية.. وإخفاق مشروعات الوحدة المتواترة شاهد على قصور دافع

التوحيد القومى إلا أن يعزز بدافع التوحيد الدينى الفعال.. القومية وحدها لا تطرح مع الوحدة مضمونا ومنهجا شاملا كالإسلام الذى يبرز معالم الحياة الموحدة المنشودة.

ونعود لنؤكد أن المغالاة التى وقعت فيها بعض الحركات القومية التى رفعت الرابطة القومية فوق الرابطة الدينية يجب ألا تدفعنا كرد فعل للإغفال المتعمد للظاهرة القومية، والإغفال المتعمد لضرورة التنوع الإقليمى فى إطار أمة الإسلام، وأن التنوع ليس مجرد تنوع جغرافى ولكنه ينعكس فى كثير من الأمور الفقهية فى عدد من النواحى السياسية والاجتماعية وعلى رأسها كيفية مواجهة المخطط العدوانى للغرب على الحضارة الإسلامية. فالأمة الإسلامية لم تبن دولتها ولا حضارتها من الفراغ، ولكن من هذه المواد الأولية، هذا الخليط من القبائل والقوميات والأعراق المختلفة،

والقول بأن هذه التكوينات لا مجال للنظر فيها أو وضعها فى عين الاعتبار، لابد أن يؤدى إلى مواقف فقهية خاطئة فى مجال بناء الدولة الإسلامية، بل إن دراسة فقهية معمقة للسيرة النبوية الشريفة ستعطى لنا نموذجا فريدا لمقولة أن (الوحدة غاية والفاعلية القطرية والقومية طريق لازم إليها) قياسا على عالمية رسالة النبى ﷺ ومحلية أسلوبه المتدرج فى بسط الدعوة قدما من العشيرة إلى أم القرى ومن حولها إلى العرب كافة، وبسط الدولة من المدينة إلى الجزيرة ثم إلى مخاطبة الذين يحيطون بدار الإسلام ومجاهدة الذين يلونها، ومن ذلك نحو العالم، هو التوجه الذى حققه الخلفاء.

ثانيا: مشروع البناء الحضارى للمستقبل

لا يمكن الحديث عن أى مشروع للنهضة بدون حسم قضية الاستقلال الوطنى والقومى والفكاك من إسار التبعية للاستعمار بأشكاله التقليدية والجديدة. وقد كانت وستظل نقطة الالتقاء الجوهرية بيننا كحركة إسلامية وبين الأنظمة والحركات القومية التى لم تتشرب بالمنهج الإسلامى.. تكمن فى قضية الاستقلال الوطنى. فاستقلال الإرادة الوطنية شرط حياة، ووعاء لبناء النظام الإسلامى. فالإسلام لا يمكن أن تقام دولته فى إطار أنظمة تابعة للاستعمار الذى يكن أكبر عداء للإسلام، الاستقلال الوطنى شرط أولى لبناء الدولة الإسلامية، وعلى سبيل المثال فلولا كفاح جبهة التحرير الجزائرية ضد الاستعمار الفرنسى - ودعم ثورة يوليو لهذا الكفاح الذى أدى لاستقلال الجزائر لما أصبح الطريق ممهدا الآن للحركة الإسلامية الجزائرية، لأن

الاستعمار الفرنسي كان يستهدف فرنسة الجزائر ومحو هويتها العربية والإسلامية وابتلاعها بصورة نهائية فى إطار امبراطورية فرنسية.

وفى هذا الإطار نفسه يمكن فهم تزايد الوعى لدى الحركات الإسلامية والقومية الفلسطينية بضرورة العمل المشترك لاستخلاص فلسطين أولا.. وتطهيرها من الوجود الصهيونى، فلا شك أن الحفاظ على الوطن والأرض شرط لإقامة أى نظام مستقل خاصة النظام الإسلامى الذى يمثل فى تقديرنا ذروة الاستقلال، بما يطرحه من نظام شامل لبناء المجتمع بصورة مغايرة، ومناقضة للنمط الغربى.

ومن المؤسف أن يدرك أعداؤنا هذا المفهوم بصورة أعمق من بعض أبناء الأمة حيث يقول أحد المسئولين الاستعماريين فى تعبير بالغ «الصفاء». (المسلمون عالم مستقل كل الاستقلال عن عالمنا الغربى فهم يملكون

تراثهم الروحى الخاص بهم ويتمتعون بحضارة تاريخية ذات أصالة، فهم جديرون أن يقيموا قواعد عالم جديد.. دون حاجة إلى إذابة شخصيتهم الحضارية والروحية فى الحضارة الغربية فإذا تهيأت لهم أسباب الإنتاج الصناعى فى نطاقه الواسع انطلقوا فى العالم يحملون تراثهم الحضارى الثمين وانتشروا فى الأرض يزيلون منها قواعد الحضارة الغربية، ويقذفون برسالتها إلى متاحف التاريخ)(١١).

وقد كان إدراكنا لقضية الاستقلال الوطنى هو الأساس المبدئى لموقفنا من العدوان الأمريكى على العراق، فرغم خلافنا المعلن والمعروف مع النظام العراقى من زاوية توجهاته العلمانية إلا أننا نرى أن هذه معركة داخلية بين الشعوب الإسلامية وحكامها، وأن الغزاة الأجانب لا يستهدفون إلا تدمير كل أسس ومقومات البناء المستقل سواء فى المجالات المادية أو

الروحيـة، وأنهم يريدون أن يهدموا البناء على الجـميع، وإذا كانت الصحـوة الإسلامية تنبىء بأن الـدول العربية فى طريقها ـ إن آجلا أو عاجلا ـ إلى الحكم بالإسلام.. فإن الحركة الإسلامية الصاعدة والواعية تدرك أنها وريثة كل مقومـات الاستقلال الوطنى، وبالتالى فـهى حريصة عليه ـ حرصها على الحيـاة ـ ولابد أن تقاتل دفاعا عنها، وهذه خبرة الموقف الإسلامى الصحيح عبر تاريخ الغزو الأجنبى بدءا من الحـروب الصليـبيـة وانتـهاء بحـروب ١٩٤٨، ١٩٥٦، ١٩٦٧، ١٩٧٣ , ١٩٩١م.

إن مـضـمون المشـروع الحـضـارى يرتبط بصـورة لا انفـصام لهـا مع الاستـقـلال (كشكل وإطار خـارجى) والمضـمون الإسـلامى لمشـروعنا الحـضارى الوحـدوى للمسـتـقـبل يتــجـاوز تجـارب الماضى ويحـتـوى كل ايجابياتها ومنجزاتها، فالإسلام هو جوهر شخصية الأمة العربية ـ الإسلاميـة، وهو الذى يميزها عن غيرها، وهو

الذى يضع لها الضوابط والحدود والمعايير بما لا يصح أن تتعارض معه أية تشريعات أو سياسات. وقد كان المشروع الناصرى مشروعا سياسيا وطنيا وقوميا معاديا للاستعمار يستهدف تحقيق العدالة الاجتماعية والوحدة العربية.

فى عام ١٩٨٥ دعوت الشباب الناصرى لعدم تحويل الناصرية إلى نظرية على غرار النظرية الماركسية أو منافسة لها، لأن فى هذا تجاوزا لواقع التجربة التى هى امتداد للكفاح الوطنى قبل ثورة ٢٣ يوليو، وهى بدورها حلقة لما بعدها، ولأن الزمن يتحرك بسرعة ويتغير، بل وبالأساس لفتح المجال لإعادة تصويب الأفكار والأهداف وفقا للعقيدة الإسلامية، خاصة ونحن نرى فى الميدان الإسلامى - وفى عدد متزايد من الدول العربية - تنامى الاتجاهات والجماعات والأحزاب الإسلامية، التى تتجاوز الواقع التقليدى للتيار الإسلامى

الذى لم يقدم فى الماضى مشروعا سياسيا متكاملا انطلاقا من الإسلام، واكتفى بخوض معركة الحفاظ على أصول الدين، ورغم أهمية هذه المعركة للحفاظ على هوية الأمة العربية وأساس استقلالها إلا أنه كان أسير الجمود الفقهى فى المجالات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية الناجم عن إبعاد الإسلام وعلمائه عن السياسة وعن مواقع اتخاذ القرار فى مرحلة انهيار الخلافة الإسلامية، ثم طوال الحقبة الاستعمارية، وهذا أخطر ما ورثته مرحلة الاستقلال الوطنى. ولا شك أن هذه المشكلة تتصل بالماضى حيث بدأنا نعيش منذ سنوات وفى ظل الصحوة الإسلامية نهوضا فقهيا، وبداية التصدى المباشر للحركة الإسلامية لمشكلات العصر والمجتمع الحديث.

وقد بدأت بعض هذه الحركات تتحول إلى أحزاب سياسية فى بلدانها، تطرح برامج ورؤى عملية قابلة

للنقاش والأخذ والرد. إن الحركة الإسلامية بدأت تتخطى مرحلة التكوين والحفاظ على نقاء العقيدة وتطهيرها من أقوال «فقهاء» السلطان ومن تعديات العلمانية، ودخلت مرحلة المنازلة والمجابهة السياسية مع أعداء الأمة وعملائهم وأعوانهم فى الداخل وما يتطلبه ذلك من اجتهادات فقهية.

فالقضية لم تعد: هل نحن أمة إسلامية أم لا؟ هل نحن مسلمون أم لا؟ ولكنها أصبحت الاتفاق المبدئى حول مرجعية الإسلام وشموله، وأن الأمور التى ينظمها فى مجال الحكم والسياسة والاقتصاد والمجتمع لا تقل أهمية عن الأمور التعبدية، لأن العبادة تستهدف تربية الفرد.. بغرض إصلاح المجتمع فى النهاية. وبقدر ما اهتم القرآن بإصلاح الفرد وتقويمه على قاعدة الإيمان بالله، فقد وصل ذلك بإصلاح الأمم، وكم هى الآيات التى أشارت إلى هلاك الأمم كعبرة للمسلمين:

﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ (٤٥) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾.

وهى دعوة مستمرة لدراسة أسباب تقدم وانهيار الأمم التى شرحت آيات القرآن خطوطها العريضة وأعطتنا مفاتيحها.

إن المرجعية الإسلامية واجبة وضرورة لتقييم تجارب الماضى واستشراف آفاق المستقبل.

ويجب ألا ننكر أن التجارب القومية والاشتراكية العربية قد تأثرت بتجارب المعسكر الشيوعى على سبيل الاستعارة من خبراتها السياسية والاقتصادية. ويجب أن نقر أن المؤتمرات والفتاوى الإسلامية كانت تأتى تابعة لتبرير القرارات التى اتخذت سلفا، ذلك أن قرارات

ثورة يوليو لم تعرض على مجلس شورى إسلامى مفترض. وليس معنى هذا أنها معادية بالضرورة ومخالفة برمتها للإسلام، فالإسلام دين الفطرة، والثقافة الإسلامية مترسبة بدرجات متفاوتة لدى مجمل أبناء الأمة، وربما يتخذ زعيم سياسى قرارات بفطرته لا تتعارض مع الشريعة الإسلامية بل توافقها، ولكن لا يمكن أن تكون كل قراراته وسياساته مطابقة للشريعة بمجرد الاستناد للفطرة وإلا ألغينا دور الفقه ودور العلماء وأولى الألباب.

وخلاصة الأمر: إن مشروع النهضة الإسلامية الذى ندعو إليه يحتوى ويهيمن على كل المنجزات الوطنية السابقة، ويحافظ ويطور كل ايجابياتها ويعطيها تأصيلها الإسلامى.

مشروع النهضة الإسلامية لم يعد شعارا عاطفيا.. بل هو مرتبط بكل معارك الاستقلال فى المجالات السياسية

والاقتصادية التى خيضت فى الماضى والحاضر وستخاض فى المستقبل، كما هو مرتبط بخطة متميزة للتنمية والنمو الاقتصادى والاجتماعى.. ليست شرقية ولا غربية، كما هو مرتبط بالعمل من أجل تحقيق الوحدة العربية والوحدة الإسلامية الأشمل، إن مشروعنا للنهضة الإسلامية ـ فيما يخص هذه الورقة ـ يركز على تجاوز انقسامات الماضى بصورة حازمة، لأن التصدى لمهام الحاضر والمستقبل هو المهمة العاجلة، فالأعداء ليسوا على الأبواب، بل لقد اقتحموا عقر دارنا، وليس لدينا فسحة من الوقت لترف الاستغراق فى تقييم الماضى ومعاركه... ونحن إذا توحدنا حول مشروع حضارى إسلامى للمستقبل نكون قد نقدنا الماضى وقيمناه بصورة ضمنية.

إن نداءنا كان وسيظل ـ بصورة أساسية ـ للشباب فهو المهيأ بصورة طبيعية لعدم الاستغراق فى مرارات

الماضي. وهو بطبيعته مشدود للمستقبل، وهذا هو ما تحتاجه حركتنا.

وقد حاولت في هذه العجالة أن أضع المحددات الأساسية للعلاقة بين الإسلام والقومية، وعلى نحو خاص الإسلام والعروبة.. فى فكر حزب العمل، باعتبارها من أهم القضايا التى أثارت الفرقة بين أبناء الوطن حتى وقت قريب مضى، ونؤكد أن تجاوز هذه الفرقة ضرورة مبدئية وعملية، فحواراتنا تجرى الآن على أطلال الخليج والعراق والخرائب التى أحدثها العدوان الأمريكى القذر على أمتنا، والذى هيأ المسرح لانفراد إسرائيل بالقوة المسلحة المتطورة فى المنطقة، بالإضافة لعودة عصر القواعد والاستعمار التقليدى والاستيطانى فى الخليج.

ولكن.. ﴿ إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾

صدق الله العظيم

الهوامش:

١ ـ خطاب د. حسن الترابى فى المؤتمر الشعبى العربى والإسلامى فى الخرطوم ٢٥ ـ ٢٨ أبريل ١٩٩١م.

٢ ـ د. يوسف القرضاوى ـ الإسلام والعلمانية وجها لوجه.

٣ـ المرجع السابق ـ من أقوال الشهيد حسن البنا.

٤ ـ الإسلام والقومية العربية ـ عبدالرحيم فودة.

٥ ـ تفسير القرآن الكريم من سورة الأحقاف إلى سورة المرسلات ـ أحمد حسين.

٦ ـ تشير وقائع التاريخ إلى أن استجابة القبائل العربية فى الشام لمبعوثى رسول الله الذين حملوا رسائل الدعوة لدخول الإسلام.. كانت أسوأ استجابة، بل لقد كان الغساسنة أشد من هرقل ومن المقوقس فى مصر

اعتداء على الإسلام حتى لقد ذهبوا فى ذلك إلى حد قتل مبعوث رسول الله، الحارث بن عمير الأزدى فى مؤتة. ثم عمدوا إلى تحريض البيزنطيين على المسلمين والاستعانة بهم فى محاربة الحملة التى أرسلها رسول الله إلى مؤتة. أما المتنصرة العرب الآخرون فقد استمروا فى محاربة العرب والمسلمين حتى بعد موقعة اليرموك بل اشتركوا مع الروم فى معركة قنسرين.

ولم تكن هذه المشاركة من قبائل العرب التى استوطنت الشام فى جيوش البيزنطيين مشاركة رمزية.. ففى موقعة اليرموك ضم جيش هرقل البيزنطى ٨٠ ألف جندى.. وتحالف معهم جبلة بن الأيهم ملك غسان على رأس ستين ألفا من العرب المتنصرة، أى أن نسبة المشاركة تصل إلى ٤٠٪ من القوى العسكرية.

(الصراع بين العرب وأوروبا ـ د.عبدالعظيم رمضان)

٧ ـ العرب والحضارة ـ د. على حسنى الخربوطلى.

٨ ـ عبر المؤرخ ادوارد جيبون عن نفس المعنى

بعبارات أخرى تعليقا على الفتح العربى لفرنسا الذى وصل جنوب باريس بمائة ميل فقد قال:

«وامتد خط الظفر مدى ألف ميل من صخرة طارق إلى ضفاف اللوار، وقد كان اقتحام مثل هذه المساحة يحمل العرب إلى حدود بولونيا وربى ايقوسيا. فليس الراين بأمنع من النيل أو الفرات!. ولعل أسطولا عربيا كان يصل إلى مصبِّ التيمز دون معركة بحرية، وربما كانت أحكام القرآن تدرس الآن فى معاهد أكسفورد، وربما كانت منابرها تؤيد لمحمد صدق الوحى والرسالة». (المرجع السابق).

٩ ـ الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى ـ تحقيق: د. محمد عمارة.

١٠ ـ موقف الفكر القومى العربى من الإسلام ـ محمد صفى الدين خربوش ـ مجلة الحوار عدد ١٦.

١١ ـ قادة الغرب يقولون: دمروا الإسلام ـ جلال العالم.

الإســـلام والعـــروبـة وجـــدل هل ينتـــهى؟ (*)

أكـثـر الـدراسـات إثارة للجـدل فى الـعـدد الماضى (الأول) من منبر الشـرق.. كانت دراسة لأحـد أساتذتنا بعنوان (أمة واحدة) والتى دارت حول قضية العلاقة بين الإسلام والعـروبة، فقد تصور الـبعض أن التناقض بين العـروبة والإسـلام.. وبين القـضيـة القـومـيـة عمـومـا والإسـلام مـوضـوع قـد تجـاوزه الـزمن.. وأصـبح من المعـارك الفكرية للمـاضى.. وأن التـحديـات اليوم قـد تجـاوزت وحسـمت كـثـيرا من خـلافـاته.. ولكن ليس بالأمنيـات الطيـبـة يتم تعـديل جـدول أعمـال الجـدال الفكرى لـلأمـة.. وطالما أن الـتـيـار الـعـريض للـقـوى

(*) مـجلة منبـر الشـرق ـ العـدد ٢ ـ يونيـو ١٩٩٢ ـ اصـدار المركـز العـربى الإسلامى للدراسات.

الإسلامية والقومية ما يزال يحتفظ بخطوط متوازية مع بعضه البعض فإن باب الحوار سيظل - ويجب أن يظل - مفتوحا لتشكيل قناعة أساسية محكمة وقادرة على تهميش خلافات الماضى.. والتى لم تكن - كما يحاول أن يبسطها البعض - مجرد سوء تفاهم تاريخى.. بقدر ما كان يعكس تصورات وأفكار أصيلة متعارضة لدى الطرفين كان لها أسبابها التاريخية، وهى أفكار - فى تصورى - جانبها الصواب على كلا الجانبين.. وان سياقا تاريخيا جديدا يطرح نفسه منذ زمن يتيح إمكانية تجاوز الحوار المتوازى.. الذى سقطنا فى براثنه حتى الماضى القريب، ولست هنا فى مجال الجدال مع الدراسة المنشورة، بقدر ما استغل ما تضمنتها من اطروحات لتعميق الحوار حول قضية العلاقة بين الإسلام والقومية عموما، والإسلام والعروبة على وجه الخصوص، وهى القضية التى تكتسب أهمية نظرية وعملية فائقة يرتبط الاتفاق على معالجتها بمستقبل أمتنا

العربية الإسلامية وقدرتها على مواجهة التحديات الجسام لنظام استعمارى عالمى لا يعرف شفقة ولا رحمة مع أى محاولة لها للنهوض.

لقد قدمت الدراسة (أمة واحدة) القول الفصل فى القضية بعد استشهادات هامة للمودودى وحسن البنا وغيرهما حين قررت «أن الإسلاميين لا يعترفون بالتناقض بين القومية والإسلامية، فالوحدة الإسلامية تنطوى على وحدة عربية ووحدة وطنية ضمنا» وحين أضافت «والحق أن التناقض يقوم بين العلمانية المادية وبين الإسلام لابينه وبين القومية» (ص ٥٤ منبر الشرق. العدد الأول) فهذا هو الوضع السليم والواضح للمسألة.. فالرابطة القومية.. والرابطة العربية موجودة ومعترف بها، والرابطة الإسلامية هى الرابطة الأشمل التى تحتوى عليها وتضبط ايقاعها ومضمونها.

ولكن الكاتب عاد فى مواضع أخرى من الدراسة ووضع علامة التساوى بين القومية والحركة القومية

وبين العلمانية.. وإذا كان الجدال الدائر فى المقال موجه إلى الحركة القومية العلمانية التى تعادى الإسلام وتستبعده.. فهذا مما لا يمكن الخلاف حوله.. وفى تاريخ أمتنا العربية والإسلامية نماذج من هذه الحركات بالفعل.. ومازال فى ساحتها السياسية والفكرية من ينحو هذا المنحى، ونحن نصل مع الدراسة إلى نهاية المطاف فى هذا الصدد، إلا أن ما نود أن نؤكد عليه نقطتان:

الأولى: أنه فى غمار الجدال والصراع ضد الخط القومي العلماني، يجب ألا تؤدى حمية النقاش إلى إلغاء البعد القومي والرابطة القومية من حيث هو واقع تاريخي وحاضر معاش وحقيقة أزلية إلى يوم الدين بنصوص القرآن الكريم ذاته، وبالتالى لا داعى بسبب الهجوم على النزعة العلمانية لبعض التيارات القومية ادانة وتجريم الرابطة القومية فى حد ذاتها، واعتبارها رجسا من عمل الشيطان، أو طورا متخلفا من أطوار نمو

البشرية.. لأن واقع انقسام البشرية إلى قوميات وشعوب وقبائل سنة من سنن الله فى خلقه لا سبيل لانتهائها حتى فى ظل دولة إسلامية.. وان الاعتراف بهذه الحقيقة ـ ككل الحقائق الأخرى فى عالمنا ـ ليست كلمة تقال لنمر عليها مرور الكرام.. بل هى واقع ينبنى عليه الكثير من الاستنتاجات الفقهية فى شتى المجالات السياسية والاقتصادية والثقافية والحضارية القانونية.

وقد أشرت فى دراسة سابقة (الإسلام والعروبة ومشروعنا الحضارى)[1] إلى آيتين كريمتين لا أدرى لماذا يتعمد كثير من الكتاب الإسلاميين عدم التعرض لهما أثناء الحديث عن القومية؟ فى حين أن تناول الموقف القرآنى من أى قضية يجب أن يكون شاملا ومتناولا لكافة الآيات المتعلقة بموضوع البحث، أقصد بالآيتين:

أ/ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾.

ب/ ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾.

والآية الأولى تؤكد أن البشر لن ينصهروا فى أمة واحدة، ولن ينقسموا على أساس الدين فقط، إنما سيظلون شعوبا وقبائل، وأن التفاضل على أساس التقوى لن يعنى انصهارا قوميا شاملا حتى لأصحاب عقيدة واحدة.

وتأتى الآية الثانية لتؤكد نفس المعنى، فتجعل من الآيات الدالة على وجود الله.. وعلى نفس مستوى خلق السموات والأرض.. اختلاف الألسنة والألوان.. وما اختلاف الألوان واللغات إلا اختلاف القوميات والشعوب، وهى ليست ظاهرة عارضة نتيجة انحراف البشرية نحو المادية أو الإلحاد أو العلمانية، بل هى ظاهرة أصيلة وثابتة كالسموات والأرض.. ومن آيات خلق الله.. وأن الاعتراف بهذه الحقيقة القرآنية لا يعنى تبنى المفهوم الغربى للقومية.. لأن الرابطة القومية

والقبلية موجودة قبل نشوء الفكر القومى الغربى الحديث، ولها مفهومها الخاص والمغاير فى الرؤية الإسلامية.

والدكتور محمد عمارة محق عندما يدعونا إلى أخذ كتابات العالم أبو الأعلى المودودى فى هذا الموضوع بروية ودراسة ظروف المسألة القومية التى كان يواجهها المسلمون فى الهند، وكيف انعكست على آرائه وتغيرها من فترة لأخرى.

ومن هذا على سبيل المثال ما ذكره المودودى عن (استحالة اجتماع القوميات التى تعتمد على الجنس أو الوطن أو اللغة داخل القومية الإسلامية) وكذلك القول بأن على أفراد الأمة الإسلامية أن (ينسوا أصولهم وأجناسهم الخاصة، ويصرفوا أنظارهم عن أماكنهم وأوطانهم الذاتية) ذلك أن هذه الأحكام لا يمكن أن تكون مطلقة وتتعارض مع وضوح معانى الآيتين الكريمتين المشار إليهما.. فهما لم تجرما الاختلاف على

أساس القومية أو القبلية، أو اللون أو اللغة، فلماذا نحن نجرم ما أحله الله، وأقره باعتباره من آيات خلقه، فهذه الصياغات أقرب إلى العاطفة منها إلى الواقع، ولماذا نطلب من الناس بل كيف يكون بإمكانهم أن ينفصلوا وينسوا أوطانهم وأماكنهم؟ الإسلام لا يطرح رؤى خيالية تتجاوز الواقع، والعقيدة الإسلامية لم تفرض التنكر للأوطان والأصول والأجناس والأماكن. إن الارتباط بكل هذه الولاءات لا يتعارض - ولا ينبغى أن يتعارض - مع الولاء الأم لله والعقيدة الإسلامية.. ان البشر ليسوا نوعا من الأوانى الفارغة المتساوية التشكيل تتنزل عليها رسالات السماء بشكل مجرد وصاف (لاحظ حملة القرآن على الأعراب الذين هم أشد كفرا ونفاقا.. وكذلك على بنى إسرائيل).

وليس معنى الانتصار لعقيدة التوحيد.. اهمالا وشطبا وتجريدا للإنسان من الظروف والتاريخ والجغرافيا والتنوع البيئى والثقافى بل ان الدعوة

الإسلامية لا تنتشر ـ بعد توفيق الله ـ إلا بدراسة ظروف كل قبيلة وشعب وقومية، ومعرفة خصوصياتها وطبائعها وظروفها.

ولا أدري كيف تستقيم هذه الدعوى للمودودي عن نسيان الأصل والجنس والأماكن والأوطان، وما يذكره عن حديث رسول الله ﷺ: (والله إنك لأحب البلاد إليّ «مكة» ولولا ان أهلك أخرجوني منك ما خرجت). ولكنها حمية المناقشة في مناخ أدى فيه التعصب الهندوسي إلى زلازل عنيفة في المجتمع الهندي ثم انقسامه إلى الهند وباكستان.

وإذا عدنا إلى دراسة (أمة واحدة) المنشورة في منبر الشرق نجد في ص ٥٨ ان الحديث يجري عن دور الإسلام في صهر الأجناس المتباينة. مما يفهم منه أن مهمة الإسلام أن يذيبها تماما، وهذا ليس من رسالة الإسلام بنص القرآن كما ذكرنا، كل ما هناك أن الإسلام وفر رابطة أسمى وأعلى وأعم تحتوي على الروابط

الأدنى دون أن تلغيها أو تدخل معهـا فى معركة وهمية. فالإيمان بالله فى الإسلام ليس إيمانا روحيا مجردا ولكن مرتبطا بإصلاح روابط الإنسـان مع أسرته وجيرته وأهله وعشيرته ومجتمعه وأمته، فكل هذه تضاريس واقعية يتنزل عليهـا الإيمان.. وليس المسلم هائما أو محلقا فى الفضاء في علاقة روحية مع خالقه ومنبت الصلة عن أرضه بكل مـا فيهـا من تراكيب وتكوينات وجماعات متداخلة.

وتتحدث الدراسة عن خطأ العرب فى عدم نشر العربية فى الهند وتركيا فى اطار الحديث عن وحدة اللغة كأحد أسس الوحدة الإسلامية. وهنا لابد من بعض التحفظ فلا شك أن اللغة العربية هى اللغة الرسمية للدولة الإسلامية المشتركة، ولكن لابد أن نقر أن دائرة المسلمين غير المتعربين ستظل أوسع من دائرة المسلمين الذين تعربوا.. وستظل قدرة الإسلام على التوسع كعقيدة ودين أسرع وأكبر من ملاحقة الدائرة

العربية له، وأن الميل الغريزى لكل شعب للاحتفاظ بلغته الخاصة سيظل موجودا وستظل اللغات الأصلية لبعض القوميات تزاحم اللغة العربية. لأن اتخاذ قرار بإلغاء اللغات القومية سيكون قرارا بإعدام تاريخ هذه الشعوب وثقافتها وأدبها، وهذا ما يتعارض مع فطرة الإنسان بل موقفه الصحيح من تاريخه.. خاصة وان فى كثير من التراث القومى ما لا يتعارض مع الإسلام، وهذا ما يعطى قوة دافعة متجددة للغات المحلية مما يمثل قوة معاكسة لانتشار اللغة العربية.

وما يهمنا فى هذا المجال التأكيد على أن التعدد اللغوى ناموس لا يمكن وليس من المطلوب تجاوزه فى الدولة الإسلامية.. رغم ضرورة السعى إلى أن تكون اللغة العربية لغة مشتركة أشبه بوضع اللغة الانجليزية فى الحضارة الغربية، ومع ملاحظة أن ذلك أسهل على مستوى النخب المثقفة والعلماء.. وعملية أكثر صعوبة

على مستوى الشعوب.. وما يهمنا القول بأن اختلاف الألسنة قانون إلهى عام لا يستثنى منه المسلمون.

يكفى أن نشير إلى أنه بعد أكثر من ١٤ قرنا من الإسلام فإن المتحدث باللغة العربية لن يستطيع أن يتفاهم فى شوارع طهران أو أنقرة إلا بالإشارة وببعض الكلمات الانجليزية.

وعند الحديث عن وحدة تاريخ المسلمين تستخدم الدراسة عبارات مبالغ فيها فى إطار السعى لتأكيد وحدة العالم الإسلامى.. كالقول بأن التاريخ الإسلامى يعلو على التاريخ الإقليمى وينفيه.. ولكن لماذا ينفيه.. التاريخ هو التاريخ.. ولا يمكن ولا يجوز التعالى بين أجزائه ومراحله.. خاصة وأن رسالات السماء لم تنقطع قبل رسالة الإسلام، ولماذا يتم التعالى على التاريخ الإقليمى، بل لماذا يوضع فى تعارض مع ما يسمى بالتاريخ الإسلامى، وما التاريخ الإسلامى إلا مجموع التاريخ الإقليمى، وكلما ابتعدت عن قلب

العالم الإسلامى اكتسب التاريخ الإقليمى فى كل بلد خصوصيته (كتاريخ اندونيسيا، نيجيريا، السنغال.. إلخ.. إلخ) ودراسة التاريخ هامة ومطلوبة حتى فى أسوأ المراحل كعظة وعبرة ودروس مستفادة.

باختصار ان حمية المناقشة ضد الخط العلمانى القومى تدفع بعض كتابنا الإسلاميين إلى التقليل من شأن التنوع الإقليمى واللغوى والتاريخى، وبدونه لا يمكن دراسة تجارب البشر والاستفادة بها، وبدون كل هذه العوامل لا يمكن أن ينشأ علم اجتماع أو اقتصاد أو سياسة بصورة حقيقية، بل يتحول تفسير كل الأمور إلى العقيدة الإسلامية الصافية.. ويتم التوصل لصياغات جاهزة «صالحة» لتفسير كل شيء فى أى زمان ومكان..

النقطة الثانية تمس واقع العالم الإسلامى الذى أفرز الحركات القومية وما أعقبها من تناقض مع الحركات الإسلامية المعاصرة. وهذه بدورها تتفرع إلى فرعين:

أ/ الوضع التاريخي الذى تواكب مع انهيار دولة الخلافة الإسلامية وبروز الظاهرة الاستعمارية الحديثة.

ب/ الوضع الحالي الذى بدأ منذ قرابة عقدين من الزمان حيث بدأت موجة التحرر ذات الطابع القومى فى تراجع، وتصاعدت موجة المد التحررى الإسلامى.

بالنسبة للنقطة (أ) أى الوضع التاريخي للمسألة فإننا ونحن فى نهاية القرن العشرين أقدر الآن على تحليل ظاهرة الصراع بين القومية والإسلام بصورة أكثر موضوعية، وقد أصبحت الصورة شبه متكاملة.. ولم نعد مجرد طرف فى أحد الجانبين حيث لا تسمع إلا قعقعة السيوف المتبارزة، هذه النظرة التاريخية الموضوعية أصبحت ضرورية لمعالجة أوضاعنا الراهنة.

والقول بالدور الاستعمارى فى زرع فكرة القومية العربية والقوميات عموما بصورة متعادية مع الجامعة الإسلامية حقيقة تاريخية لامراء فيها، فدور الغرب

الاستعماري كان واضحا في ضرب القومية بالإسلام وضرب الإسلام بالقومية وفقا لمقتضيات مصالحه، ووفقا لتغير الظروف.. وقد كانت معركة اللعب على هذه التناقضات حقيقة، وليس مجرد انتصار لفكرة القومية، لأن الغرب الاستعماري كان يستخدم القومية كورقة دون إخلاص أو رغبة في تحقيق أي نهوض قومي في العالم الإسلامي، بل سعى الاستعمار لتمزيق العروبة إلى أكثر من عشرين دولة وتمزيق القومية الشركسية، وتمزيق القومية الفارسية، وغيرها من القوميات التي انضوت تحت راية الإسلام..

«فالقومية الاستعمارية الغربية التي كانت متربصة بنهاية دولة الرجل المريض (الدولة العثمانية) كي ترث تركتها، قد اجتمعت ضد (المشروع العربي) لمحمد علي، وناصرت السلطة العثمانية، فبدت وكأنها تنصر (الإسلام) على (العروبة) فلما زال خطر (المشروع العربي) على أطماعها بعد ١٨٤١، كان مصدر الخطر

على مطامعها آتيا من الدولة العثمانية أى من (الإسلام) فاستدارت تشجع بواسطة إرساليات التبشير، الفكرة العربية، المستبعدة لمزج العروبة بالإسلام..[٢]وقد بلغ التشجيع الغربى للفكرة العربية ذُروته مع الشريف حسين بن على خلال الحرب العالمية الأولى، حيث تم استغلال الثورة العربية لضرب دولة الخلافة الإسلامية، ثم ما أعقب ذلك من انقضاض على العروبة بمشروع سايكس ـ بيكو التقسيمى الذى لا نزال نعانى من ويلاته حتى الآن.

وظلت القصة تتكرر ضرب الإسلام بالعروبة، والعروبة بالإسلام، فمع ازدهار الحركات القومية الناصرية وغير الناصرية فى العالم العربى، يروج الغرب لفكرة الحلف الإسلامى المرتكز على السعودية وتركيا وباكستان وإيران، وعندما تصعد القوة الإسلامية المستقلة عن إرادة الغرب ممثلة فى الثورة الإيرانية وحركات المد الإسلامى فى مختلف الأقطار العربية

والإسلامية، يتراص الغرب خلف النزعة القومية ليضرب بها المد الإسلامى والثورة الإسلامية (مساندة العراق ضد إيران خلال حرب الثمانى سنوات)، وعندما يشعر الغرب بتجاوز القوى القومية لحدود اللعبة التى يستهدفها.. ينقلب ولا يزال على القوة القومية فى العراق.. ثم يعود ويركز الجهد على محاصرة وضرب الثورة الإسلامية فى إيران والسودان ومختلف الحركات الإسلامية المعارضة (الجزائر ـ تونس).

أعتقد أن هذا السيناريو الاستعمارى أصبح واضحا وكأنك تقرأ فى كتاب مفتوح، والخطط الاستعمارية ليست خططا ساذجة، ولكنها تستند لتناقضات حقيقية تتواجد فى جسد الأمة، ولشروخ واقعية تسعى لتعميقها، فالحركات العربية ما كانت لتزدهر لولا سياسة (التتريك) الغشيمة، وقد كانت من مظاهر انهيار الدولة العثمانية، فأصبحت حركات التحرر العربى لها

منطق مشروع من زاوية محاربة استعلاء القومية الطورانية، وما واكبها من استبداد.

وبعد تمزيق الدولة الإسلامية بل تمزيق القوميات المنضوية سابقا تحت لوائها بدأت تنشأ موجات جديدة من الحركات الوطنية والقومية، وموجات متوازية من الحركات الإسلامية انطوى كل جانب على ميراث العداوة المفتعلة بين القومية والإسلام.. وقدر للحركات الوطنية والقومية أن تتصدر قيادة حركة التحرر الوطنى ضد الاستعمار الغربى فى معظم البلدان العربية والإسلامية.. فقد انشغلت الحركات الإسلامية بعملية إحياء أصول الدين التى طمستها الحقبة الاستعمارية، بينما انشغلت الحركات الوطنية والقومية بمهام الساعة السياسية. والعلاقة بين التيارين القومى والإسلامى لم تكن نسخة واحدة فى كل الأقطار.. فالتجربة فى السودان وإيران والجزائر اختلفت عن بلدان أخرى كمصر والعراق وسوريا. ففى المجموعة الأولى مثلا تم

تسليم القيادة بسلاسة نسبية من التيارات القومية إلى التيار الإسلامى، فى حين شهدت المجموعة الثانية صدامات دامية بين الطرفين.

والمسئولية عن انشقاق التيارين بعد الدور الاستعمارى تعود اساسا إلى أمتنا، ففى حين تأثرت الحركات القومية بالفكر الغربى دون أن تتخلص من الاعتزاز بالهوية القومية، فإن الحركات الإسلامية لم تمثل حركة فكرية تجديدية ثرية قادرة على جذب واحتواء الطموح القومى فى إطار المشروع الإسلامى الأشمل.. وكان لدى كل من التيارين قصور أساسى فى المفهوم الاستراتيجى للاستقلال الحضارى، وكان من الطبيعى أن تفشل الأمة فى مجموعها فى تحقيق التحرر والاستقلال الناجز عن النفوذ الغربى، ولم تكن جميع الحركات القومية على مسافة واحدة من الإسلام، فالحركات العربية ظهر بعضها كحركات إصلاح داخل الجماعة الإسلامية لا تستهدف انسلاخا منها، ظهر

بعضها الآخر فى صيغة انسلاخية، ولم يكن ذلك بعيدا عن آثار الانكسار السياسى للدولة العثمانية ولا عن النفوذ السياسى والفكرى الأجنبى بداخلها، ولا عن انتشار المدارس الأجنبية، انما ظهر كرد فعل لحركة التتريك التى جنحت إليها سلطات الحكم التركى بعد ١٩٠٩ على عهد جماعة الاتحاد والترقى)..(٣) .

وبعد اندثار الدولة العثمانية كرابطة إسلامية، وتحول تركيا إلى مركز علمانى فى عهد كمال أتاتورك، فإن الحركات القومية اللاحقة التى نشأت لمقاومة الاستعمار الغربى لا يمكن أن تتهم بمحاربة الدولة الإسلامية التى لم تكن موجودة .

بل ان شرط عودة الدولة الإسلامية أصبح مرهونا باستقلال الأقطار الإسلامية، وان كل جهد قومى ضد الاستعمار أصبح مرهونا باستقلال الأقطار الإسلامية، وان كل جهد قومى ضد الاستعمار الغربى ومن أجل الاستقلال هو لخدمة الإسلام وحتى وإن لم يرفع رايات

إسلامية، وبالتالى يصعب اتهام الأنظمة القومية التى نشأت فى أعقاب موجة الاستقلال الحديث فى الخمسينيات والستينيات بأنها كانت مدعومة من الاستعمار كقول أحد الكتاب الإسلاميين (ووقف المستعمر القديم من وراء البحار يشجع القوميين.. ويدعمهم ويحرسهم بقواعده العسكرية وبوارجه الحربية).. وفى العهود الأخيرة (جاءت المعونات الأمريكية والأوروبية على قدر التمسك بتلك السياسات ومحاربة الإسلام) والتاريخ القريب يشير إلى أن القواعد العسكرية تمركزت فى الدول ذات الأنظمة الملكية وضد الأنظمة القومية، أما فى العهود الأخيرة فإن المعونات تنصب على الأنظمة التى تخلت عن هويتها القومية وارتمت فى أحضان التبعية وليس على تلك الأنظمة التى لا يزال لديها ولو بقايا روح الاعتزاز القومى.

هذه الحقائق لابد أن نعترف بها، رغم أن التحرر

القـومى إذا لم يرتبط بالإسـلام كـعـقيـدة ونظام حـيـاة وشريعة لا يكون استقلالا حقيقيا وحضاريا ومتكاملا.. وهذا مـا يفسـر السقـوط السريع ـ بالمفـهوم التـاريخى ـ لتـجـارب الاستـقـلال القـومـيـة، والمهم أن تكون هذه الدروس للمسـتقـبل، وليس للاسـتـغراق فـى معـارك الماضى.

وتبـقى كلمة بالنسـبـة للحوار فى زمـاننا الحاضـر.. حول قـضيـة العروبة والإسـلام.. فالظروف الـتاريخـية اختلفت.. وما أشرنا إليه سابقـا هو أقرب لتقييم تجارب الماضى.. أمـا فى الوقت الحـالـى فطبـيـعـة التـحـديات الخـارجيـة اختلفت فى أشكالـها ومظاهرها.. وتركـيـبـة النظام الدولى اختلفت.. والحـركات الإسلاميـة ليست هى نفس الحركات الإسلامية بعد أن استفادت بتجارب السنين وتقـدم فكرها.. وأصبـحت أكـثـر إقبـالا على دراسة عصرها، والحركات القومية تنفتح بصورة متزايدة

على الإسلام والفكر الإسـلامى فى مصر وفي مـختلف البلدان العـربية يـستـوعب كل إيجـابيات جـهاد الأمـة وكفـاحها من أجـل التحرر والاسـتقلال ويسـتنير بفـقه إسلامى متجدد.. يستهدف توحيد العرب والمسلمين فى إطار المشروع الحـضارى الإسلامى الواحد.. ولا يفـتعل مشكلة ـ غير قائمة حقيقة ـ بين الوحدة العربية والوحدة الإسلامية.

الهوامش:

١ـ الإسلام والعروبة ـ مجدى أحمد حسين ـ المركز العربى الإسلامى للدراسات.

٢ـ الإسلام والعروبة ـ د. محمد عمارة ـ دار الشروق.

٣ـ مجلة مستقبل العالم الإسلامى ـ العدد الثانى ـ المستشار طارق البشرى ـ العلاقة بين العرب والترك.